الكتابة الشاهدية والذاكرة الجماعية: قراءة في أنثروبولوجية العلاقة بمقابر مدينة سيدي بلعباس

د. بوشمة الهادي،
جامعة سيدي بلعباس.

ملخص:

كما يبدو من العنوان، موضوع هذا البحث تَمَحْوَرَ حول على علاقة مُتغيري الكتابة الشاهدية بالذاكرة الجماعية، وحيز هذه الدراسة فيه خصّ بعض مقابر مدينة سيدي بلعباس كنموذج لمقابر أخرى.

العمل هذا تمفصل على عدد من المباحث التي انتهت إلى محاولة الربط السوسيو أنثروبولوجي بين الكتابة الشاهدية والذاكرة الجماعية، في هذا السياق كانت العودة بداية للتأصيل الأنثروبولوجي لحدث الموت باعتباره ليس مجرد حدث فيزيولوجي، وإنما هو حدث كائن ذو رموز، ومعطى بشري وثقافي عام والقدر النهائي لكل البشرية، لننتقل بالبحث إلى محاولة الربط بين حدث الموت والكتابة من خلال مختلف الطقوس والممارسات والمعتقدات والتعابير والتصورات، التي ارتبطت به ومنها فعل الكتابة كآلية استحدثت ضد النسيان وكفعل للاستذكار والتذكر.

في إطار ذلك تبدو الكتابة الشاهدية ذات أهمية كبيرة مثلما تتعدد رهاناتها عند المجتمع المبحوث، فالشاهد ومن خلاله القبر والكتابة هي وثائق مهمة أثريا وفنيا وتاريخيا، مثلما هي مهمة أيضا من الناحيتين السوسيولوجية والأنثروبولوجية، فالمقبرة دوما فضاء للاتعاظ، مثلما هي فضاء للذكريات، وتبقى أحد أهم رهانات الكتابة الشاهدية من على القبور الموجودة بها عند مجتمع سيدي بلعباس كنموذج لهذه الدراسة، اعتباره لها كآلية مهمة للتذكر والتواصل الاجتماعي بين الحي والميت وترك ذكراه قائمة.

عموما يبقى النص الشاهدي متضمنا لرموز المجتمع المحلي وثقافاته مثلما هو حامل أيضا لرهاناته في التواصل والتذكر، فالكتابة الشاهدية في تمثلات هذا المجتمع تبقى أهم آلية ضد النسيان، مثلما هي المحدد لهوية الميت والرابط بذكراه.

Résumé :

Tel qu'il apparait a travers le titre de l'objet de cette étude, cet article s'articule autour de la relation entre les épitaphes et la mémoire collective. Les deux cimetières de la ville de Sidi bel Abbes, considérés comme modèle, constituent son espace.

Ce travail s'articule autour d'un certain nombre de thèmes, se proposant d'établir un liant socio-anthropologique entre les épitaphes et la mémoire collective. Pour ce faire, s'inscrivait initialement une approche anthropologique de l'événement que constitue le décès, non pas en tant que fait physiologique, mais aussi comme événement chargé de symboles, donnée humaine et culturelle, et destin de toute l'humanité. A cela s'ajoute une volonté d'établir une relation entre le décès, et les divers rituels : pratiques et croyances, perceptions et expressions qui lui sont associées, l'écriture entre autres, comme un luttant contre l'oubli et comme un acte de recueillement et de mémoire.

Dans ce cadre l'écriture apparait de grande importance, comme la multiplicité des enjeux au sein de la population objet de l'enquête. Les épitaphes, à travers la tombe et l'écriture constituent des documents d'une importance, autant archéologique, artistique, historique, que sociologiques et anthropologique. En tant qu'espace chargé d'enseignements, et mémoriel, reste un enjeu important des inscriptions funéraires dans la société bel Abbesienne, objet de la présente étude ; des inscriptions entendues comme support d'un mécanisme social et communicationnel, sont dans l'imaginaire un moyen entretenant la mémoire et déterminant de l'identité du défunt et ceux, vivants, qui lui sont attachés. En définitive le texte « épitaphique » demeure un réceptacle des symboles des groupes et des cultures locales, mais aussi des enjeux de la mise en réseau de la mémoire.

تقديم:

حُظِيّت شواهد القبور ومن خلالها النقوش المقبرية والمأتمية ومعها مختلف الطقوس الجنائزية بالدراسة الأركيولوجية والتاريخية خصوصا، غير أنه بالمقابل لم تكن موضوعا محوريا

بالنسبة للسوسيولوجيا أو الأنثروبولوجيا، التي اهتمت بجوانب إنسانية وثقافية أخرى، غير أنه ومع اتساع نطاق مشهدية الظاهرة، بدأت البحوث الأنثروبولوجية خصوصا تتجه إلى كشف مختلف أنساق الشعائر والطقوس الجنائزية، ومنها النصوص الشاهدية، التي تعرضت إلى محاولة التفكيك لرموزها وللخطابات الحاملة لها مع محاولة فهم مضمونها وتأويل دلالاته بما يتماشى ورهانات المجتمعات الدنيوية والأخروية من هذا السلوك.

بالمقابل لهذا يعتبر حدث الموت الحدث الأبرز، الذي شد إليه البحث، فكل العلوم على اختلافها كانت لها رؤيتها وتفسيراتها للموت، حتى أن الباحث في هذه الظاهرة يصطدم بكثافة غير معهودة للدراسات المنجزة حولها، ما يُصعّب عليه عملية التصنيف والموضعة، غير أنه برغم هذه الكثافة فإن الربط بين الموت والكتابة الشاهدية، تبقى إلى اليوم محدودة في المخابر السوسيولوجية والأنثروبولوجية مقارنة بالأركيولوجيا وعلم التاريخ، اللذين قطعا أشواطا معرفية ومنهجية مهمة في مقاربة النص الشاهدي كوثيقة تأريخية وفنية، وفي نفس الوقت كظاهرة ممارسة مبطنة بتمثلات وتصورات المجتمعات حول الموت والحياة الأخرى.

سنتطرق ضمن هذا البحث كما يتبدى من عنوانه لنسق العلاقة بين الكتابة الشاهدية والذاكرة ومن خلالها التواصل الإنساني، دون أن نتغافل حدث الموت كحدث مُؤثّث ومؤسّس لفعل الكتابة، فالموت أثار بداية محاولة الانسان لتفسيره وإدراكه وحتى تجنبه والفرار منه، ولكن بعدما تيقن أن ذلك غير ممكن، اتجه إلى صياغة تصور وتمثل لحياة أخرى بعد الموت، وفي ذلك كان للمعتقد الدور الأبرز في ترسيم هذه التمثلات، بعد ذلك سيصاحب حدث الموت بطقوس استئناسية وحميمية نازعة لعناصر الاغتراب عن الذات، أو ما عرف في "أنثروبولوجيا الموت بإزالة مفعول الموت واستئناس الموت"(**حيرش، ب، م. 2012: 04**).

إذن، دراستنا هذه سنحاول من خلالها موضعة الموت بداية في علاقته بالطقوس الجنائزية ثم بالكتابة الشاهدية، على أن بقية

مباحث هذا العمل ستتمفصل خارج الموت، باعتبار أننا سنتجه بالبحث في العلاقة بين الكتابة الشاهدية والذاكرة الجماعية ومن خلالها رهان التواصل الاجتماعي بين الأحياء والأموات، فالنص الشاهدي ومن خلاله القبر والمقبرة سيكون المجال الفيزيقي لهذه الدراسة الباحثة في هذا النوع من الممارسات والسلوكات، التي بدأت تلفت الأنظار إليها لكثافة حضورها، وتبحث عن تحليل وفهم وتفكيك ممكن لمعانيها ودلالاتها.

إذن، الكتابة الشاهدية في علاقتها بالذاكرة والتواصل هي ما سنتوقف عنده ميدانيا من خلال هذا العمل، الذي تعرضنا فيه لعينة من المجتمع المحلي بمدينة سيدي بلعباس، وضمنه اخترنا مقبرتين عموميتين بمجالها الحضري، لدراسة عينة من القبور والشواهد، حيث قمنا بداية بتفريغ مضمونها وتفكيكه ومن ثمة قراءته وتحليله، وقد دعمنا عملنا هذا بمجموعة من المقابلات، التي خصت عينة من زوار المقبرتين.

I- حيز الدراسة الميدانية:

شملت هذه الدراسة لمقبرتين ملحقتين بكل من ضريح سيدي بلعباس ومقام مولاي عبد القادر، وهما عينة عن بقية المقابر الموجودة بالمجال الحضري لمدينة سيدي بلعباس وضواحيها القريبة، المقبرة الأولى هي مقبرة مولاي عبد القادر، التي تنسب لمقام القطب الصالح (مولاي عبد القادر الجيلاني)، تضم فضائين متجاورين للدفن الأول قديم تم استيفاء مجاله من الدفن، وآخر جديد لا زال قابلا لمزيد من الإقبار. تقع في الجزء الشرقي من المدينة ذات مساحة كبيرة تفوق الخمسة هكتارات، تاريخ إنشاء جزئها القديم بالتقريب كان يرجع إلى فترة الاحتلال الفرنسي، أما الجديد فخلال الثمانينات.

أما بالنسبة للمقبرة الثانية فهي مقبرة سيدي بلعباس البوزيدي، تنسب إلى ضريح الولي الصالح (سيدي بلعباس البوزيدي السبتي)، تقع في الجزء الغربي للمدينة، مساحتها تقدر بأكثر من خمسة هكتارات، أما تاريخ إنشائها بالتقريب فإنه يعود إلى فترة الأربعينات من القرن الماضي، ولكن هذا لا ينفي أن الدفن بقرب

ضريح سيدي بلعباس كان خلال القرنين **18** و**19**م، إذ إن تاريخ وفاة هذا الولي يرجع إلى سنة **1780**م.

II- في أنثروبولوجية الموت والكتابة الشاهدية:

البحث في العلاقة بين متغيري الكتابة على شواهد القبور والذاكرة الجماعية، يستدعي منّا بداية ضرورة التأصيل الأنثروبولوجي والسوسيولوجي للموت باعتباره ليس مجرد حدث فيزيولوجي، فهو حدث كائن ذو رموز، ومعطى بشري وثقافي عام، كما أنه القدر النهائي للبشرية، فكل حي هو ميت، وكل ميت هو في أصله حي، فالإنسان كائن معد للموت، فهو "ذا القبر"(**بن حتيرة، ص. 2008: 326**)، وبتعبير (**مارسيا، إ. 2009: 212**) فإن "الموت ليس مجرد ظاهرة طبيعية (الحياة، أو الروح التي تغادر الجسد)، بل إنه كموضوع يتناول تغير نظام هو بآن واحد أنتولوجي واجتماعي".

فالموت كحدث عرفته وتعرفه جميع المجتمعات، وقد حظي من طرفها بطقوس ومعتقدات وأعراف وممارسات وتعابير وتصورات مختلفة، مثلما نُسجت عن عالمه الخرافات والأساطير، وشكّل جزء من تراث الأمم، الديني والتاريخي وحتى الثقافي والاجتماعي والأثري بالخصوص في صورة شواهد أرّخت لاهتمام الإنسان الأول بالموت.

فالموت كما عبّر عنه الفيلسوف الإغريقي **هرقليطس** (ولد سنة **530** ق.م): إنه "في كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ويعيش الكل، وفي لحظة يموت واحد منا وتبقى الحياة. الموت بداية كما هو نهاية، والموت هو نهاية كما هو بداية"(**عميري، إ وروبه، س. 2012: 29**)، أما عند (**مارسيا، إ. 2009: 176، 185**) فإن الموت هو "ضرب من ضروب الوجود البشري، الذي لا ينهي الحياة نهاية أخيرة وحاسمة [...] فهو ليس بالأمر النهائي، وإنه متبوع دائما بولادة جديدة"، اقتضت عند الإنسان الأول أن يؤسس لها عمارة جنائزية تحاكي بيوت الأحياء، وفي هذا القول تماثل العودة والموت والمسكن ضمن رمزية الحميمية، ولذلك حملت الكثير من

شواهد القبور باللغة اللاتينية حملت في معناها هذا التلطيف والحميمية في كتابة عبارة " أنت من تراب" مثلا(**دوران، ج. 2003: 214**)، والأمر نفسه في نظرية الخلق، التي احتوتها كثير من النصوص المقدسة ومنها القرآن، الذي أكد بشكل صريح ومباشر أن أصل الإنسان هو من التراب، وإليه سيعود بعد موته ومنه سيبعث حيا يوم الحشر.

هذا غذى إذن، آمال الإنسان في الحياة الأخرى، ما جعله يلجأ إلى بناء القبر وهندسته بشكل يؤدي وظيفة تلطيفية للميت داخله، كما أن قلب معنى الموت في حد ذاته احتاج إلى طقوس تحتوي هذا الإنسان وتجعله كائنا محتوى أو كما عبّر عنه **باشلار** بـ "كائن خبئ وغطي برفق"، كائن "أعيد إلى أعماق مصدره الأول (تراب)"، ومن ثمة يظهر أن طقوس الدفن كانت تحيل في رمزيتها الأولى إلى أمل ورجاء الإنسان في الاحتفاظ بجسد ميته إلى أطول مدة ممكنة تحت التراب، وفي ذلك ظهر التحنيط عند المصريين مثلا، الذين خصوا جثث فراعينهم بالعناية والتحنيط إضافة إلى الأطعمة والقرابين، لاعتقادهم بأن الميت تنتظره حياة أبدية أخرى(**دوران، ج. 2003: 216- 217**)، فالموت عندهم " لم يكن نهاية للحياة (كما عند العراقيين القدامى) بل استمرارا لها في عالم آخر لا يختلف في جوهره عن عالم الحياة" (**الماجدي، خ. 1999: 238**).

على العكس فإن تمثلات العرب القدامى حول الموت والدفن والجثة، دفعتهم إلى "الإسراع في التخلص من الجثة لخوفهم الشعوذي من الجثة ومن عودتها"(**شلحت، ي. 2013: 109**)، ولكن بالمقابل نجد في معتقداتهم أن أرواح الأموات وأنفسهم تلازمهم في قبورهم وتبقى بينهم، ومردّ ذلك أن الطاقة الروحية المقدسة يجب أن تعود إلى مصدرها(**صديقي، م، ن. 2014: 19- 20**)، الأمر اختلف في معرفة هذه المجتمعات بالإسلام، حيث أصبحت تصوراتهم وتمثلاتهم مبنية في نسقها في ارتباط بالمعتقد الديني

الإسلامي، فأفضل ما يمكن تقديمه للمتوفى هو سرعة دفنه "إكرام الميت دفنه"، أي أن المعنى من السرعة في هذا الطقس هي إكرام له في بيئة يصعب الاحتفاظ فيها بجثته(**حيرش، ب، م. 2014: 05**)، فالمسلم يعلم من خلال النص المقدس أن الجثة ستتحلل وستكون غذاء للديدان، بينما الروح وحدها هي من تبقى محشورة في السماء الثالثة إلى حين يوم الحشر، ومعها تبدو للمخيال الشعبي العام أن أرواح أمواتنا تسمعنا وترانا، كما تصلها الصدقات والأدعية، دون أن تتكلم، لكن يمكن استحضارها عبر آلية المنام، في المقابل تغدو الكتابة في التفاف على الأرثوذوكسية الإسلامية المحرمة لبناء القبر وتجصيصه والكتابة عليه العنصر الرابط لهم بميتهم وبترك ذكراه قائمة.

إذن، "الموت يوجد في قلب الحياة الاجتماعية عند المجتمعات المسلمة، شأنه شأن بقية طقوس العبور الأخرى (الولادة، الزواج)، فهو لحظة أساسية ومفتاحية للحياة الاجتماعية من غير أن يكون مخبأ أو مكبوتا، بل إنه يظهر كمقطع مفتوح ومتقبل كجزء لا يتجزأ من الوجود، وهو يسمح في تصور مختلف الفاعلين الاجتماعيين بالعبور والمرور من عالم الحس إلى عالم الغيب، ما استدعى معه جملة من الشعائر والطقوس المنجحّة لهذا العبور" **(حيرش، ب، م. 2012: 36)**.

لقد كشفت أنثروبولوجية الموت عموما أن تصور الإنسان الأول عن عالم ما بعد الموت، جعله يتخذ مناحي عديدة وأشكالا وطقوسا مختلفة في عملية الإقبار، خصوصا أن الديانات كما يرى **هربرت سبنسر** قد نشأت عن احترام للأموات وعبادتهم، ولم يوارى حسبه الإنسان في لحده إلا بعدما نشأت تصورات ذهنية للإنسان حول حياة ما بعد الموت، ودليل ذلك أن وضع الميت في القبر اختلف باختلاف معتقدات الإنسان الأول، فاعتقاد بعض الشعوب مثلا في أن الإنسان يولد من جديد بعد موته، دفعها لوضع موتاها في القبور على هيئة الجنين في أحشاء أمه، استعدادا للولادة الثانية(**شلحت، ي. 2003: 60**).

تفسير هذه التصورات واختلافها حول الموت نابع من كون مشهديّة هذا الحدث قد شدّت الإنسان الأول منذ القدم، فكان أكثر شيء يخافه، لذلك حاول بكل الطرق إيجاد التفسير الممكن له، أو الطريق للفرار منه وتجنبه، ولكن مع عجزه واستحالة إيجاده التفسير أو الطريقة لتجنبه، بدأ هذا الانسان يقنع نفسه بأن الموت ليس هو نهاية، وإنما لحظة انتقالية إلى حياة أخرى، وأن حدث الموت مرتبط في مشهديته الفيزيقية بالجسد فقط بينما الروح تبقى حية بأشكال مختلفة، ولأجل هذه الحياة الأخرى وتبعا لأشكال التصور والمعتقد والأسطورة اتجه الانسان إلى إبداع طرق في تعامله مع جثة الميت من حيث طقوس وطرق الدفن وأنواع المدافن وعمارة الموت، فرغم اختلاف الشكل لكن هناك تشابه عام من حيث المضمون، ونفس الشيء يمكن تعميمه عن فلسفة الانسان حول الموت ومصير الروح(**عميري، إ وروبه، س. 2012: 23**).

بعد حدث الموت، تأتي الطقوس الجنائزية التي يتمثلها معظم الأنثروبولوجيين كطقس للمرور، ويعد فيها الدفن كممارسة ناقلة للجسد من عالم الأحياء إلى الأموات، بعد ما يتم فصله بداية عن عالم الأحياء (**منديب، ع، غ. 2006: 158**)، وبمقتضى ذلك يصبح الميت سلفا عند بعض المجتمعات، في حين تعمل مجتمعات أخرى على إزالة الموتى تماما من مجال الحياة الاجتماعية للأحياء(**الجوهري، م. 2008: 374**) تبعا لمعتقداتها وتصوراتها، التي تُكوّنها حول حدث الموت، في حين تحافظ أخرى على أواصر الصلة والذكرى بأمواتها والكتابة في ذلك أحد مفاتيح الربط.

بالنسبة لطقس الدفن فإنه يصاحب في العادة بطقوس وممارسات أخرى قد تسبقه أو تلحقه، وهي تختلف باختلاف عقائد وأساطير وتمثلات الأمم لحدث الموت والدفن، بعد ذلك يأتي فعل الحداد الذي قد يطول أو يقصر، وبانتهائه يعود الجميع إلى الحياة العادية(**منديب، ع، غ. 2006: 158**)، لكن هذه العودة لن تكون قطعية في العلاقة بالأموات، ولأجل ذلك كانت الكتابة الشاهدية ضرورية عند كثير من المجتمعات للتأريخ لهوية أمواتها

وإعادة إدماجهم بداية مع الأموات ثم في ربطهم بعالم الأحياء مرة أخرى من خلال فعل الكتابة على القبر، والمتضمنة في العادة لخطاب يتحدث من خلاله المتوفى ولو بشكل صوري مع الحي.

يحصل كل هذا بعد بناء القبر، الذي يأتي في العادة عند كثير من الشعوب العربية ومنها المغاربية والجزائر بالخصوص بعد أربعين يوما من الوفاة، لكن مع كثرة الموت وعمليات الإقبار تبعا للكثافة السكانية الكبيرة، أصبح بناء القبر اليوم ومعه الكتابة الشاهدية، ظاهرة آنية وسريعة حتى لا تتعرض هوية القبر وصاحبه للتلف والاختفاء بين القبور الأخرى، وهو الأمر الذي لاحظناه بمقابر هذه المدينة أو حتى بمقابر مدينة وهران (عين البيضاء مثلا)، إضافة إلى ذلك تلجأ الفئات الاجتماعية الأخرى خصوصا منها غير المتعلمة على تعيين قبور أمواتها بإشارات رمزية ولو ظرفيا ما يجعل الحسي والتجريدي (الإشارات الرمزية والكتابة) مستمرين في التعايش جنبا إلى جنب، أحدهما علامة مرشدة للأميين والآخر علامة مرشدة للمتعلمين حول هوية وقبور أمواتهم(**بوشمة، ه. 2012: 21- 22**).

في هذا السياق اعتبرت الكتابة الشاهدية أداة مهمة إنسانيا ضد النسيان، فبفضلها يتم تعين وتوضيح هوية أصحاب القبور، كما أنها وسيلة لحمايتها من التلف بين القبور الأخرى، وهذا ما جعل منها عنصر ضروري في التأريخ للأموات وترسيخ فعل الارتباط والتذكر وذاكرة الأحياء بهم.

إذن، هذا جعل من الكتابة الشاهدية بفضاءات المقابر، تبرز للعيان كأحد أبرز الظواهر الملفتة للانتباه في بنية ونسق هذا الفضاء، حيث ارتقت بحضورها السوسيولوجي اليوم إلى مستوى يفرض ويتطلب من أي باحث ضرورة توفير وتوظيف عديد الآليات والمناهج والأدوات لتفكيك وفهم هذا السلوك وبناه المختلفة، وما يحيل إليه من مضمون رمزي تذكّري وتواصلي بين الأحياء والأموات، خصوصا أن المُتَضَمّن في النص الشاهدي، عادة يحتوي هوية الميت وأدعية ومواعظ للأحياء، إضافة إلى آيات في أحيان أخرى، تكون نسقا لخطاب بين الميت المتكلم صوريا من خلال

النص الشاهدي والحي الزائر، الذي في العادة يجيب بطلب الرحمة والمغفرة للأموات بصيغة المفرد والجمع.

إن فعل الكتابة، رغم أنه مُحَيّد من ضمن الطقوس الجنائزية، إلا أنه مَثَّلَ للإنسان كما يبدو أهم ميكانيزمات تعايشه وربط ذاكرته بأمواته، ومعه لم يعد مجال وموضع الجثة مقتصرا على حفرة القبر بل تعداها اليوم بعد البناء إلى الشواهد، التي تعدّت الإثنين في بعض الحالات، حيث الملاحظ لفضاء المقبرة والمقابر يكتشف اتساع مجال الكتابة الشاهدية ليشمل فضاءات مستحدثة مثل المصحف الموضوع وسط القبر وغيره، هذا جعل الكتابة، تعرف توسعا في مجالها ومضمونها ومحتواها وحتى ألوانها، ومعه أصبحت عنصرا مؤسسا ورابط لعلاقة بنيوية ووظيفية بين الانسان الحي والميت والموت في حد ذاته، فالشاهدان ومختلف الفضاءات المضافة إليهما بما تتضمنه من كتابة ورمزيات غَدَتْ مجالا للتعبير والتواصل وللذكرى بين الأحياء والأموات، كما انعكس ذلك كآلية وميكانيزم أبدعه الانسان للالتفاف على الموت ومجابهة النسيان.

III- أهمية الكتابة الشاهدية ورهاناتها:

يبدو للباحث في فضاء المقبرة أن شاهد القبر هو أهم وثيقة موجودة فيها، وقبل أن يكتسي أهمية أنثروبولوجية وسوسيولوجية، فهو قد اكتسى قبلها قيمة أثرية وفنية وتاريخية كبيرة، فقد كان الشاهد مصدرا لمعطيات ومعلومات تخص المعطى البشري والديمغرافي والمذهبي(**حسن، م. 1983: 04- 06**)، فمن خلال هذه الشواهد يمكن إدراك الألقاب والأنساب العائلية والقبلية، وكذا القرابات والتجاورات في الفضاء على أساس صلة الدم وغيرها.

فالكتابات الجنائزية إذن، لها أهمية كبيرة في الدراسات الجينيالوجية وانحدار نسب العائلات والأفراد من خلال المُدَوَّنِ والمكتوب في النص الشاهدي، فهذا النوع من النقوش يُبرز للباحث أصل الأسر والأفراد وانحدارهم من أصل عربي أو بربري أو غيره، كما تُمَكِّنُنَا هذه الشواهد من الناحية العددية من

قياس أهمية كل قبيلة أو مجموعة ما داخل مجال المدينة ميدان البحث(**حسن، م. 1983: 07**)، مثلما تعكس هويات المتوفين داخل المقبرة التركيبة والمورفولوجية الاجتماعية والسكانية داخل تلك المدينة.

إضافة إلى هذه الأهمية، فإن النص الشاهدي يعكس أيضا المذهب - كما سلف الذكر- وحتى الصراع المذهبي، حتى وإن كان ذلك لا يُطْرَحُ بمجال شواهد مقابرنا سواء بسيدي بلعباس أو بمجال المقابر بالمدن الجزائرية الأخرى، اعتبار بأن المجتمع الجزائري مالكي المذهب في معظمه مع استثناء للإباضية في جنوب البلاد، في المقابل تبدو أهمية الشاهد كوثيقة ديمغرافية من خلال الأعمار المدوّنة للمتوفين، والفروق الكمية بين مختلف الفئات، مع تفسير ذلك في ارتباط بسياق التاريخ والقرابة وغيرها.

أما من ناحية الأهمية الثقافية فيبرز الشاهد كوثيقة عاكسة لجزء من عادات وتقاليد وأعراف المجتمعات، ومن ذلك مثلا مكانة المرأة، حيث عادة ما تتغافل النقوش الشاهدية ذكر اسم المرأة كاملا وإذا ذكر اسمها يذكر بشكل عمدي في ارتباط باسم الرجل، أو تقع نسبتها إلى أبيها (**حسن، م. 1983: 04-09- 11**)، وهو فعل يعكس النمط الأبوي لمجتمعاتنا، وقد لاحظنا ذلك على عدد كبير من شواهد المقبرتين بسيدي بلعباس.

تفسير ذلك تعكسه جينيالوجية الأنساب العربية المذكرّة في الغالب، والتي تُغيّب معها وبشكل مطلق الأنثى المرأة- الأم من الانحدار النسبي، فقط السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي (صلعم) بالنسبة لآل البيت هي وحدها من يذكر اسمها في شجرة النسب مع علي في مستوى واحد، أو كما هو حال بعض الوليات في الاسلام الصوفي المغاربي، بدوره ينظر العرف الشعبي المتوارث إلى اسم المرأة كاسم عورة ما يؤدي إلى تستيره أو اختزاله بكلمة داري وبيتي في الحياة أو بتعريفها بعد موتها بإلحاق اسمها باسم ذكر (أب أو زوج) وهو الفعل الغالب والمدون بشواهد المقبرتين عندما يتعلق الأمر بقبر امرأة.

من ناحية الأهمية الأنثروبولوجية والسوسيولوجية تبدو الكتابة الشاهدية مفتاح أساسيا لفهم المجتمعات المعنية بالدراسة، فالمقبرة مرآة عاكسة للتراتب والتفاوت الطبقي وصورة حية لواقع المجتمعات، مثلما تختصر هذه النصوص الشاهدية الثقافة والهوية والحضارة والتاريخ، كما يتبين من خلال الشاهد عادات الكتابة ومضامينها وتراكيبها وغير ذلك، غير أن هذه الأهمية تضاف لها الرهانات المجتمعية من فعل الكتابة، وهو الجزء الأساسي الذي سنركز عليه هذا البحث.

عموما المقبرة هي مكان للذكريات، وفي نفس الوقت وبشكل مناقض هي مكان للنسيان، فهي المسكن والمأوى الأخير للإنسان، كما أنها الحقل الغني بالرمزيات (ELAROUSSI, Kh. 1998: 293) يحتاج فهمه إلى التفكيك والتأويل، فالمقبرة نص كبير حروفه وفقراته الشواهد والقبور، التي تختصر الزمن والهوية وتحدد مكان اللحد، وتعكس بالمقابل لرهانات المجتمعات من خلال الكتابة الجنائزية، حيث تبدو عناصر الذاكرة والتذكر ومعها التواصل الاجتماعي أحد أبرز رهانات هذه المجتمعات ومن خلالها المجتمع المحلي بمنطقة سيدي بلعباس.

فمقابر هذه المدينة تعرف حضورا كثيفا ومتزايدا للكتابة الشاهدية من على القبور الموجودة بها، هذا كان دافعا لنا للاستفهام ومحاولة تفسير أسبابه، وربط علاقة ذلك بالذاكرة والتواصل وبمختلف التمثلات، التى يحملها أفراد المجتمع المحلي وتعكسها ممارساتهم، وبالتالي الذي سنبحثه من خلال هذا العمل هو رهان المجتمع المحلي بسيدي بلعباس من الكتابة الشاهدية، وأسبابه ودوافعه في ذلك.

IV- المقاربة المنهجية للكتابة الشاهدية:

ستكون الأنثروبولوجية التأويلية (الغيرتزية)(CLIFFORD, G. 2002 : 24)المقاربة- المفتاح التي سنعتمدها في تفكيك هذه النصوص وفهم المعاني الثقافية، التي تقدمها وتحيل إليها كفعل انساني، فالنص الشاهدي هو نص ملغز وغامض ويخفي وراءه نصوصا أخرى، ومذاهب وتمثلات [...]، ولذلك وجب الوصف

المكثف لأدق العناصر، وفي ذلك حاول **غيرتز(Geertz)** قبلا في إطار مقاربته التأويلية لأنساق الرموز والثقافات ومعانيها، أن يؤسس لإطار منهجي ومعرفي يبحث في فهم كيف تشكل هذه الرموز فهم ومشاعر الناس؟.

ومن ثمة كان اتجاهه بالنظر إلى الناس أساسا باعتبارهم ذوات ثقافية، وإن أفعالهم يمكن دائما النظر إليها باعتبارها ذات معنى ورمزية(**أبو اللغد، ل. 1994: 28)**، وبالتالي توجهت قراءة **غيرتز(Geertz)** للظواهر من خلال قراءته " للفعل الاجتماعي وفهمه واستيضاح ما الذي تعنيه أفعال الناس لأنفسهم وللآخرين، ولتحديد هذه العملية استعار **غيرتز** فكرة الوصف السميك أو المكثف من الفيلسوف **جلبيرت رايل**"(**أبو اللغد، ل. 1994: 28)**، ومنه فإن اختيارنا للمقاربة **الغيرتزية،** يتأسس على ما تمنحه هذه المقاربة من ميكانيزمات وطرق في تفكيك وفهم وتأويل للنص الشاهدي كنص ثقافي وكفعل ونسق ذي معاني ودلالات(**أبو اللغد، ل. 1994: 30)**، إضافة إلى مختلف الأدوات الأخرى المساعدة من قبيل الملاحظة بالمشاركة والمعاينة المباشرة لفضاءات الدراسة وكذا التصوير الفوتوغرافي.

V- تأصيل لغوي واصطلاحي للمفاهيم الإجرائية:

بداية، الموت هو الانفصال الطبيعي والملزم عن العالم، وهو النهاية الطبيعية لكل مخلوق، حيث يتوقف الجسد عن الاشتغال ويصير جثة هامدة **(حجي، م، م. 1998: 45- 47)**، وهو في اللغة الموت والمنية والردى والوفاة والحَتْفُ...الخ(**إدارغة، م. 1998: 110)**، بينما كلمة الشّاهد فهي مشتقة من المشاهدة، وهي بمعنى المعاينة، والشّاهد: يعني مبيّنا، وهو العالم الذي يُبيّن ما علمه والجمع أشهاد وشهود والشهادة خبر قاطع منه **(ابن منظور، ج، د. 2005: 630)**، كما يعني الشاهد في اللغة: الأمين في الشهادة والذي لا يغيب عن علمه شيء، والشاهِدة هي الأرض، وقد شَهد كعَلِم وكَرُمَ، والشاهد هو اللسان **(الفيروزآبادي، م، م. 2008: 307)**، أما الشواهد فإنها تختلف بين الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة والمنقوشة على الرخام أو الخشب أو الجص، لكنها

كلها كلمة أو كلمات جسدت فعلا متوخى أو أثرا ما في حياة الناس، أي ما تتركه تلك الكلمة بغض النظر عن الشكل الذي دونت به **(بوخالفة، ع. 2011: 09)**.

بينما يعتبر الباحث المصري **علاء الدين عبد العال** أن "الشاهد بما يحمله من كتابات متنوعة يعتبر بمثابة الخبر والدليل، الذي يشير إلى المدفون في القبر الذي يعلوه هذا الشاهد، بمعنى أنه دليل على صاحب القبر"**(علاء الدين، ع، ع. 2013: 15- 16)**.

بالنسبة للاصطلاحات التي أطلقت على شواهد القبور الاسلامية فهي تختلف من قطر إلى آخر تبعا لاختلاف اللهجات خصوصا، ففي بلاد المغرب والجزائر بمختلف مناطقها يطلق على الشاهد مصطلح الروسية وذلك لأنه يوضع عند رأس صاحب القبر، الجنابية من الجانب ولأنها تحدّ القبر عند الرأس والرجلين، كذلك هناك مصطلح المقبرية والقبرية، التأريخ، **(علاء الدين، ع، ع. 2013: 17)**، غير أن الكلمات الأشهر بالشرق والوسط والغرب وحتى الجنوب الجزائري تبقى كلمتي الشاهد والروسية.

بالمقابل الكتابة الشاهدية (Inscriptions funéraires) هي الكتابات المنقوشة على شواهد القبور لتخليد ذكرى وفاة أحد الأشخاص، ويطلق عليها أيضا اسم الكتابات المقبرية، نسبة إلى القبر، الذي يحتضن عادة رفاة المتوفي، في حين لا يمكن أن يطلق عليها مصطلح "الكتابات المأتمية" لأن المأتم يراد به مجموعة الأنشطة المرتبطة بدفن الميت، ولا يمكن حصر معنى المصطلح في تسجيل نص على شاهد قبر**(عوني، ح، م. 2010، 115)**، عادة ما يكون شاهد القبر من لوح أو من الحجر أو الخزف أو أي مادة، يستعمل على القبور من أجل التعريف بصاحب القبر وحفظ اسمه ومنع اختلاطه بغيره من القبور **(حقي، م. 2005: 393)**.

أسهم ظهور الكتابة في نهاية الألفية الثالثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام في اتجاه الإنسان إلى صناعة الشاهد والكتابة الشاهدية، التي أصبحت مع الزمن معلما حضاريا- ثقافيا، وكنتيجة حتمية وحضارية لممارسة الانسان طقوس الدفن الجماعي، حيث اتجه إلى التأريخ وتعيين قبور موتاه من خلال

شواهد مكتوبة مصنوعة عادة من الحجارة أو مأخوذة على الصورة، التي وجدت عليها في الطبيعة – تطورت مع الزمن إلى شواهد مصنوعة من الرخام والخشب [...]- توضع فوق القبور، وتستعمل كإشارات وعلامات من الأحياء للتدليل بها على قبور موتاهم، حتى لا يضيع أثرها في البراري والصحاري الواسعة، والوقوف عليها للتذكر عند اقتضاء الحاجة **(معزوز، ع، ح. 2011: 15- 16)**، وذلك بالخصوص قبل ظهور أول فضاء للمقبرة، التي لا يعرف لها تاريخ محدّد في تاريخ الانسانية.

في مقابل الكتابة الشاهدية، فإن القبر كفضاء لهذه الكتابة، يعرف كمكان لدفن الإنسان، وجمعه قبور، مشتقة من الفعل الثلاثي قبر، قبرا الميت، دفنه. والمقبر المصدر، والمقبرة هي موضع القبر وهو المقبريّ، والقبر هو قياس في اسم المكان من قبر يقبُر المَقبرُ ويُقبِرُهُ أي دفنه وأقبره جعل له قبرا، والمقبرة هي موضع دفن الموتى **(ابن منظور، أ، أ. 2005: 644)**، وهي أيضا مشتقة من فعل ثلاثي معناه وارى، أي أخفى، يقال وراه التراب، أي وضعه في حفرة القبر وغطاه بالتراب**(معزوز، ع، ح. 2011: 23).**

إذن، من الناحية اللغوية، القبر كما سلف الذكر، هو مدفن الإنسان والجمع قبور يقبره ومقبرا: دفنه وأقبره جعل له قبرا، والقبور من الأرض: الغامضة **(الفيروزآبادي، م، م. 2008: 490)** ومعنى أقبر: دفن ووارى، وأحيانا يستعمل اللحد بمعنى القبر رغم أن هناك اختلافا بينهما، فاللحد هو الشق الذي يحدث في جانب القبر قصد الزيادة في حماية الميت داخل قبره، فهو ليس إلا جزءا من القبر**(حقي، م. 2005: 388)**، و"*المقبر المصدر: موضع القبور*، كما يرى ***سيبويه***، وقبره يُقبِره ويَقبُرُهُ: دفنه وأقبره: جعل له قبرا، وأقبر إذا أمر إنسان بحفر قبر**(ابن منظور، أ، أ. 2005: 644-645)**، ويسمى القبر في لغة العرب ضريح، وحسب تفسير **الفيروزآبادي** الضريح هو البعيد والقبر، أو الشق وسطه، أو بلا لحد، وقد ضرح ضرحا أي حفر له (الميت) ضريحا**(الفيروزآبادي، م، م. 2008: 240)**

في دائرة المعارف الاسلامية، القبر هو "*ما له حفرة تستعمل لدفن الميت*"، ومن ثم كان استعمال عبارة "*هذا قبر أو ضريح*"، وهما المصطلحان اللذان كثيرا ما نجدهما مستعملين في معظم النصوص الشاهدية المنقوشة على شواهد القبور الاسلامية(**معزوز، ع، ح. 2011: 23**).

أما فيما يخص التعريف بالمقبرة فهي بفتح الباء وضمها هي موضع القبور، قال ***سيبويه*** والمقبرة بفتح الباء ليس على الفعل ولكنه اسم، وهي موضع دفن الموتى، وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية أن كلمة المقبرة مرادفها جبانة ومدفن (*Cimetière*، *Nécropole*)، وعمامة (*Turban*)، غير أن المشهور منها هو كلمة مقبرة التي ذكرت في القرآن الكريم في سورة التكاثر(**معزوز، ع، ح. 2011: 23**).

VI- الكتابة الشاهدية وعلاقتها بالذاكرة:

بداية، الذهنية الإسلامية المتشددة، أثقلت كل ما يدور في فلك القبر بالنواهي والمحرمات، فمثّل ذلك عائقا أمام ترسّخ واستمرار ذاكرة الأحياء بأمواتهم كما هو الحال بالنسبة للشعوب الأخرى، فطقوس الدفن هي آخر طقس احتفالي – لا حداد بعد ثلاثة أيام- ، وبالتالي لا توجد مناسبات أخرى للتذكر أو لإحياء ذكرى الأموات، هذا الموقف المعادي للذاكرة لم يستطع أن يصمد في نسق الممارسات الاجتماعية حول القبر، فهذه النواهي لم تكن دائما متبعة، فقد جرى الالتفاف عليها وتطويعها، حتى أنّنا نلمس نوعا من التحدي، فالذاكرة الجماعية الجزائرية والمحلية بالمنطقة رغم تسننها ومالكيتها، إلا أننا نجدها حريصة على بقاء ذكرى الميت قائمة، وهو ما أكسب ذلك الحق والشرعية بالتقادم عبر آلية الاعتراف الاجتماعي (**سعيد، م. 2003: 284- 285**).

بالنسبة للكتابة الشاهدية، فقد كانت آلية انسانية للتذكر أبدعها الانسان وانتقل بها من عالم الإشارات والعلامات الحسية، إلى الكتابة التجريدية، حيث أصبحت ظاهرة ملازمة لمعاشه وتعبير له أو عنه، وباعتبار أن المقابر وما تحيل إليه من رمزية

الانتقال، فإن الانسان انتهى لأجل التذكر وعدم النسيان إلى آلية الكتابة الشاهدية، التي أصبحت تلازم القبر عبر شاهديه الأمامي والخلفي، اللذين يحملان في هندستهما رمزية الباب الوهمي، الذي يبرز مع الشكل الغائر الموجود على الشاهد **(حيرش، ب، م. 2012: 36)**، والذي يحمل معنى الدخول والتواصل مع الميت صاحب القبر (القبر= البيت، والمقبرة= المدينة)، فآلية معرفة وتذكر هوية الميت والاستحضار الذهني له تتم في العادة بعد قراءة الشاهد قبل التواصل معه وإجابة الطلب.

فيما يتعلق بميدان البحث بمقابر سيدي بلعباس، فإن الملاحظة بداية هي كثافة الكتابة الشاهدية المتنوعة في أشكالها ورموزها وهندستها ومضامينها خصوصا، فما تتضمنه أغلب شواهد المقبرتين هو استمارات مكتوبة متضمنة لمعنى الخطاب الممكن من الأموات إلى الأحياء، تبين فيه في العادة هوية المتوفى وأدعية وآيات وأحاديث تحملها عادة شواهد قبره، تجعل المتأمل لها يدرك أن الكتابة بما تتضمنه من رمزية ودلالة تحيل رغم الموانع الدينية والفقهية إلى اتجاه هذا المجتمع المحلي إلى تخليد أبدي لأمواته وربطهم بالذاكرة الجماعية (الأسرية بالخصوص)، مع محاولة استدرار الزائر لفضاء المقبرة للتواصل مع أمواته من خلال الدعاء والترحم عليهم، هذا يحيل في رمزيته أن الميت إنسان مذنب هو اليوم في الدار الأخرى ويحتاج إلى الرحمة والدعاء من لدن جميع الزوار لفضاء المقبرة.

إذن، الشاهد بفضاء المقبرتين تحول مع الزمن إلى مجال للنص وللتدوين لهوية صاحب القبر، كما عوضه رمزيا حيث أصبح لسان حاله الذي لا يتكلم، بل يبعث الاشارات البليغة والمؤثرة نظير ما يتضمنه من خطاب بليغ موجه إلى الأحياء، مثقل بالكلمات المؤثرة في المشاعر(**تـوينبي، أ، وآخـرون. 2011: 151)** سواء في طلب الرحمة باعتبار أن الميت كائن انساني مذنب يحتاج لذلك لأجل النجاة من النار في الدار الأخرى، في المقابل تؤثر مشهدية المقبرة وتوزيع القبور وخطابات الشواهد في تمثل ومخيال الانسان الحي، حيث سمة التذكر والتفكر تصبح الآلية الملازمة للزائر، فمن

هول المقابر وما تتضمنه شواهدها تتأجج مشاعر الزائر سواء في شوقه لأمواته، أو بخوفه على مصيره وقدره من موت محتوم.

فالمقبرة من خلال هذا، هي "ليست موطنا للأموات فقط، بل إن طقوس الزيارة تتيح للأحياء إعادة تملكها وامتلاكها في إطار ما سبق الاشارة إليه عند المختصين في أنثروبولوجيا الموت بإزالة مفعول الموت، أو استئناس الموت"**(حيرش، ب، م. 2012: 04)**، وفي ذلك تصبح الشواهد بخطاباتها خيطا رابطا للأموات بالأحياء، هذا الحال تكتشفه محليا طقوس الزيارة الأسبوعية خصوصا والمصادفة ليوم الجمعة، حيث تجديد اللقاء واستئناس الأموات وشحن عناصر الذاكرة بهم من جديد يتم عند كثير من الزوار في هذا اليوم المقدس في الدين والمخيال الاسلامي.

بالعودة إلى تحليل معاني الخطاب الذي يحمله الشاهدان، فإننا وجدناه بميدان المقبرتين موجها بصيغة المخاطب إلى كل إنسان زائر وطأت أقدامه فضاء المقبرة، ومن ثمة أصبح الشاهد بما يتضمنه من نص مكتوب خطابا موجها يتضمن نوعا من الحوار بين إنسان صوري (ميت) وإنسان حي، يطلب الأول من الثاني تلبية طلبه في الرحمة وطلب المغفرة، والموعظة من حاله، بالمقابل يحاول الثاني جواب الأول بقبول طلبه، والتوجه إلى طلب اللّه لرحمته، ومنه فإن فعل طلب الرحمة كتعبير إنساني لمرجوات المتوفى، يحيل في ما معناه إلى طلب الرأفة من اللّه بعباده في الدار الأخرى، يتمخض عن هذا الفعل نوع من التواصل بين الحي والميت مضمونه أن فقيدنا هذا لن ننساه ونحمله دائما في ذاكرتنا، ونتقرب إليه بفعل الزيارة، ونحاول تحقيق رجائه المحمّل على النص الشاهدي.

فعل التواصل وربط خيط الذاكرة بين الأحياء والأموات كما عبر عن ذلك بحث سابق لتصورات وتمثلات المجتمع المحلي بسيدي بلعباس للكتابة الشاهدية**(بووشمة، ه. 2012: 14- 27)** لن يكون إلا بتعيين هوية موتاهم، عبر نصوص شاهدية تحيل الزائر إلى قبورهم، إذ برغم الخطاب الديني الأرثوذوكسي

الواضح بالمنطقة، الذي يكره كل أشكال التعيين والبناء على القبور وزخرفتها والكتابة عليها، فإن الأوساط الشعبية المحلية لم تجد بدّا من تعيين قبور موتاها من خلال كل أشكال البناء والكتابة.

إذن، - وكما سلف الذكر- نحن أمام نوع من التحدي تكرسه الذاكرة الشعبية الجماعية رغم تسننها ومالكيتها مذهبيا، إلا أنها حريصة على بقاء ذكرى الأموات قائمة ومستمرة(**بن حتيرة، ص، س. 2008، 349).**

في سياق ذلك عكست مجموع نوايا الإجابات المستخلصة من مجموع المقابلات، التي تم إجراؤها مع عدد من المبحوثين بفضاء المقبرتين بمدينة سيدي بلعباس، اعتبارهم أن الكتابة أداة انسانية ضد النسيان، من خلال اجمال قولهم الذي نلخصه كالتالي: " إننا نعين بها قبور الأهل، نوضح هويتهم، ونحمي بها القبر من التلف بين القبور الأخرى"، هذا يجعل من الكتابة عنصرا ضروريا للتأريخ للميت، ومن ثمّة تصبح الكتابة أداة للتذكر والذاكرة، وتبقى أهم رهاناتها حسب المبحوثين هي ربط وتشديد الوصل والذاكرة مع الأموات والمفقودين، بل أكثر من ذلك هي أداة انسانية ضد الموت ذاته، لأنها تبقي ذكرى الميت حية مستمرة في ذاكرة الأهل والأقارب، والزيارة في ذلك تكون الطقس، الذي يديم ويحافظ على نسق الذاكرة والتذكر والعلاقة بين الحي والميت.

VII- النص الشاهدي ورهانه التواصلي:

من ناحية علاقة الكتابة الشاهدية والتواصل أكد غالبية المبحوثين على أن معلومات الهوية للمتوفي والدعاء له بالمغفرة والرحمة هو ما تتضمنه أغلب الشواهد. نفس الأمر تأكد لنا ميدانيا من خلال ملاحظاتنا، إذ إن أغلب القبور الموجودة بفضاء مقبرتي سيدي بلعباس، والتي اخترنا قراءة شواهدها عشوائيا- يتضمن الشاهد الأول منها عادة هوية المتوفى أما الشاهد الثاني

فيتضمن الدعاء له، بصيغة يمكن تلخيصها في عبارة " يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة".

الصورة (1): تبين هوية صاحب القبر وتاريخ ميلاده ووفاته	الصورة (2): تبين الدعاء المُدَون على النص الشاهدي

من ناحية ثانية، تأملنا لشكل القبور ومحتواها من الكتابة، جعلنا ندرك فحوى خطاب ضمني يمكن قراءته وفك رموزه وتأويل معانيه وتحديد دلالاته، فمجال القبر يقدم خطابا يفرض على الزائر تلقيه والتجاوب معه. فهذا الأخير تُؤَسَّسُ هويته فوق الجدار الذي يَحُدُّ مسكنه (قبره) من الجانبين. إنها متضمنة في الكتابة على الشاهدين: أحدهما في أعلى القبر والثاني في أسفله وعلى كل منهما خطاب مختلف، الأول عبارة عن بطاقة تعريفية تتضمن الاسم والنسب وسنة الميلاد ثم سنة الوفاة، وعلى الثاني آية قرآنية أو دعاء بصيغ مختلفة ولكن أكثرها هو دعاء "يا واقفا على قبرنا أدع لنا بالرحمة والمغفرة"(**يشوتي، م. 2011، 03**).

إذن، هذه المعلومات المدونة على النص الشاهدي تفرض على المتلقي (الزائر)، رد الجواب بطلب رحمة الميت، وهو ما يحصل، وبالتالي من خلال مجال الشاهد يؤسس الانسان الحي لحوار بينه (كزائر) وبين من هم من مخاطبيه (صوريا) وهم الأهل من

الأموات، الفاصل بينهم أن كل طرف في دار، الأول في الحياة الدنيا، والثاني في الآخرة لا يستطيع الكلام(**يشوتي، م. 2011، 03**)، ولكن عوّض النص الشاهدي ذلك، بأن أصبح لسان حاله، إنه نسق للاتصال والتواصل مع الانسان الزائر، الذي تُجلِّه العبارات والمواعظ والأدعية المكتوبة، مثلما يشدّه شكل القبر وبناؤه، ومن ثمة يمكن القول إن القبر بشاهديه وبنائه هو نسق محمل بالرموز والدلالات، التي تحيلنا إلى التواصل، الذي في الأخير هو أحد رهانات الحي والميت من الكتابة الشاهدية.

بالعموم، فإن الكتابة الشاهدية هي حاملة خطاب حى مستديم يُذَكّرُ بالميت الراقد تحت الثرى وتحيل المرء إلى ذِكْرَاه، ومن جهة أخرى إذا كان الموت يحيل إلى الانتهاء من مرحلة، فإن من شأن لجوء المجتمع للتأريخ لمواته أن يكون عنصرا في حد ذاته ضد الموت، ومنه - كما سلف الذكر- تصبح الكتابة وسيلة أمان ضد الموت/ النسيان/ الفناء، ومعها تعاظمت الحاجة الإنسانية لأجل عدم فقدان/ نسيان الأماكن التى دفن فيها الأقارب والأهل، ولأجل ذلك استعان الإنسان الشعبى والمحلى ببعض "العلامات" المرشدة للدلالة على قبور موتاه، ما لبثت أن تطورت هذه العلامات وأصبحت اليوم "علامات كتابية" تستجيب لتعقد/تطور الحياة الاجتماعية وتوسع المقبرة، فهذه العلامات تشهد أن فلان عينه مدفون في هذا القبر وليس شخصا آخر.

من جهة أخرى تُعدّ الزيارات فعلا إنسانيا (طقسا) يحافظ به المجتمع المحلى على ذاكرته بأمواته وخصالهم والدعاء لهم، ويساهم في الحفاظ على فضاء الدفن وصونه، كما يسمح ذلك حسب المجتمع المبحوث من الحضور والوجود الدائمين في الغالب لبناء القبر والكتابة على شواهده، باستثناء لعينة من القبور غير المبنية التي لاحظناها، وهي إما قديمة أو تعود للفئات الاجتماعية التي تتبنى الخطاب الديني النصي المحرم لنقش الآيات القرآنية والكتابة على القبور وبنائها.

بالنسبة لأسباب الحضور المتنامي للكتابة من على القبور بمجال هذين المقبرتين عدّد المبحوثون عددا من الأسباب، منها أن

الكتابة تساعد على الذاكرة التذكر وعدم نسيان الأهل والأقارب من الأموات، كما أن الكتابة بما تتضمنه هي خطاب للتواصل بين الميت والحي، وهي ضرورية لطلب الرحمة وإجابتها، وطقس الزيارة عامل مهم ومساهم لاستمرار هذا التواصل، ومن ناحية أخرى اعتبر عدد من المبحوثين أن تزايد عدد الأموات وكثرة القبور وتشابهها في الشكل والبناء يتطلب الكتابة، ويجعلها ضرورية للتمييز بين القبور وتحديد هوية أصحابها، وإلا فإنها ستختفي مع الزمن، وعينة القبور التالية توضح ذلك:

صورة (5، 4، 3): تبين عينة من شواهد القبور بكل من مقبرتي سيدي بلعباس ومولاي عبد القادر

إذن، من شأن استمرار الكتابة وحضورها الدائم أن يكون في حد ذاته استمرارا للمتوفى بين الأحياء، ومن ثمة تصبح الكتابة أهم العناصر المؤسسة لشروط التواصل بين الحي والميت والمفضية إليه، ما يؤدي إلى دخول الانسان الحي في عملية تواصل مع ميته، والعكس، ومعه تصبح الزيارة تواصلا بين ذاتين. والقول بأن فلان يزور فلانا، يعني أنه يؤسّس علاقة ما (ترحم، تذكر، حنين...) وتصبح من خلالها الكتابة كرابطة بين الطرفين **(يشوتي، م. 2011، 04).**

- **خلاصة:**

انتهى هذا البحث، إلى التأكيد على أن هناك علاقة وثيقة بين الكتابة الشاهدية والذاكرة الجماعية، ومن ثمة كان أحد أهم رهانات المجتمع المحلي في الكتابة على شواهد مقبوريه هو عنصر الذاكرة والتواصل، فرغم تسنن هذا المجتمع، إلا أن البحث عن الاستدامة واستمرار ذكرى أمواته دفعه إلى الكتابة من على شواهد قبور أمواته، رغم الموانع الدينية كما سلف الذكر.

إذن، خلاصة البحث، الكتابة الشاهدية بالنسبة للمجتمع المحلي ميكانيزم أساسي للتواصل، وخيط رابط للذاكرة بين الأحياء والأموات، فهي الأداة التي أوجدها المجتمع لممارسة فعل التواصل، وفي نفس الوقت هي آلية رمزية ضد الموت في حد ذاته، حيث بفضلها أوجد المجتمع الوسائل والسبل لمجابهة النسيان، وترك ذكرى الأهل الأموات، الذين ماتوا جسديا حية روحيا ومستمرة وحاضرة بين أهله وأصحابه، ومن ثمة تبقى الكتابة الملاذ بعد فترة الأربعين من الموت (النسيان)، والعنصر الأساسي، الذي يلجأ إليه المجتمع المحلي في الغالب بعد ما يفرغ من بناء القبر مباشرة، فهي المحدد لهوية الميت والرابط الأبدي له مع الآخر الحي – الزائر- ، وهو الأمر الذي تعرفه أغلب القبور اليوم بفضاء المقبرتين، حيث البناء والكتابة أصحبا عنصرين أساسين ومرتبطين بمرحلة ما بعد الدفن، وللتمثيل فقط، أغلب القبور التي قمنا بمعاينتها بفضاء المقبرتين هي مبنية ولكن ليس بالمطلق كما أن أغلبها يضم شواهد مكتوبة مع استثناء للقبور التي بنيت في الفترة الكولونيالية ولتلك التي إلتزم أصحابها بتحريم النص الديني للبناء والتجصيص والكتابة.

- **البيبليوغرافية المعتمدة:**

1- البيبليوغرافية باللغة العربية:

1- 1- المصادر:

1)- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الأفريقي المصري (2005)، لسان العرب، تحقيق **عامر أحمد حيدر** ومراجعة **خليل عبد المنعم**، المجلد **3**، ط**1**. بيروت. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.

2- **الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (2008)**. القاموس المحيط، مراجعة وإشراف **الإسكندراني محمد**. بيروت. دار الكتاب العربي.

1- 2- المراجع:

1- **أبو اللغد ليلى (1994)**. "المجالات النظرية في أنثروبولوجيا العالم العربي"، ت. باقادر أبو بكر أحمد، من مجلة منبر الحوار: مجلة فصلية لحوار الأفكار والثقافات، بيروت: دار الكوثر ، السنة التاسعة، العددان **32- 33** ربيع وصيف **1994**، ص ص (**24- 61**).

2- **إدارغة محمد (1998)**. " رحلة شاقة في ملكوت الموت". من الكتاب الجماعي: الكتابة والموت: دراسات في حديث الجثة، ط**1**. مكناس. سندي للطباعة والنشر، ص ص (**77- 110**).

3- **بن حتيرة صوفية السحيري (2008)**. الجسد والمجتمع: دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، ط**1**. تونس: دار محمد علي للنشر.

4- **بوخالفة عزي (2011)**. شواهد الاحسان على مآثر المحروسة تلمسان، ط**1**. تلمسان: منشورات تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية.

5- **بووشمة الهادي (2012)**. "الكتابة على الضريح والقبر بسيدي بلعباس: توسيع لآفاقها أو تضييق لها؟"، عمل منجز ضمن مشروع الكتابة على شواهد القبور بمنطقة الغرب الجزائري، بين النمطية والتجديد. وهران: المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC).

6- **توينبي أرنولد وآخرون (2011)**. الانسان وهموم الموت، ت. شعلان عزت، ط**1**. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

7- **الجوهري محمد (2008)**. المفاهيم الأساسية في علم الأنثروبولوجيا، القاهرة: منشور غير مطبوع.

الحاج موسى عوني (2010). فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز- منشورات عكاظ.

8- **حجي محمد (1998)**. " استطيقا الموت في " حديث الجثة"، من كتاب: الكتابة والموت: دراسات في حديث الجثة، ط**1**. مكناس: سندي للطباعة والنشر، ص ص (**45- 49**).

9- **حسن محمد (1983)**. "القيمة الفنية والتاريخية للكتابات الشاهدية الإفريقية: مثال القيروان"، مجلة الحياة الثقافية. تونس: وزارة الشؤون الثقافية، السنة الثامنة، العدد **25**، ص ص (**04- 12**).

10- **حقي محمد (2005)**. "عمارة الموت في المغرب والأندلس: بناء القبور"، من مجلة المناهل، عدد حول: "العمارة في المغرب قديما"، مجلة فصلية

تصدرها وزارة الثقافة المغربية. الرباط: مطبعة دار المناهل، السنة 27- عدد 74/73، ص ص (387 402).

11)- **حيرش بغداد محمد (2012)**. "الكتابة على شواهد القبور: تحولات الكتابة وحالتها الراهنة بمقبرة عين البيضة بوهران" محور بحث ضمن مشروع الكتابة على شواهد القبور بمنطقة الغرب الجزائري بين النمطية والتجديد. وهران: المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC).

12)- **حيرش بغداد محمد (2014)**. الكتابات الجنائزية في الصحف: المكونات والخصائص، مشروع بحث في طور الانجاز، (2014- 2017). وهران: وحدة البحث (UCCLLA)، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC).

13)- **سعيد محمد (2003)**. " المجال الأوليائي: ضريح سيدي محرز نموذجا"، ورقة مقدمة إلى الملتقى الدولي الثاني حول: القبيلة- المدينة- والمجال في العالم العربي الاسلامي الوسيط، مخبر العالم العربي الاسلامي الوسيط. تونس: 10- 12/04/ 2003.

14)- **شلحت يوسف (2003)**. نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية- اليهودية- النصرانية- الاسلام)، تحقيق وتقديم خليل أحمد خليل، ط1. بيروت: دار الفارابي.

15)- **شلحت يوسف (2013)**. الأضاحي عند العرب، ت. خليل أحمد خليل، ط1. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

16)- **دوران جيلبير (2003)**. الأنثروبولوجيا: رموزها، أساطيرها، أنساقها، ت. الصمد مصباح، ط3. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

17)- **صديقي محمد الناصر (2014)**. ميثولوجيا أديان الشرق الأدنى قبل الاسلام، ط1. بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.

18)- **علاء الدين عبد العال عبد الحميد (2013)**. شواهد القبور الأيوبية والمملوكية في مصر، ط1. الأسكندرية: نشر مكتبة الأسكندرية وطبع بمطبعة الشركة المتحدة للطباعة والنشر.

19)- **عميري ابراهيم وسوزان روبه (2012)**. المدافن والطقوس الجنائزية في ريف دمشق، ط1. دمشق: منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة.

20)- **الماجدي خزعل (1999)**. الدين المصري، ط1. عمان- الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن.

21)- **مرسيا إلياد (2009)**. المقدس والعادي، ت. العوا عادل، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

22)- **معزوز عبد الحق** (**2011**). شواهد القبور في المغرب الأوسط بين القرنين (**13** و**19**م)، ط**1**. الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية.

23)- **منديب عبد الغني** (**2006**). الدين والمجتمع: دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

24)- **يشوتي محمد** (**2011**). "تواصل الواقع والمتخيل من خلال علاقة الدنيوي بالأخروي"، بحث غير منشور، وجدة: كلية الآداب، جامعة وجدة.

2- البيبليوغرافية باللغة الأجنبية:

25)- **ELAROUSSI Khalid** (1998). « Mort et espace funéraire islamique: le cas de ville d'ELJADIDA », les sciences humaines et sociales au MAROC : études et arguments, Institut Universitaire de la recherche scientifique, Rabat. pp **287**(- 303).

26)- **CLIFFORD Geertz** (2002). Savoir local, savoir global : les lieux du savoir, traduit par DENISE Paulme, 3éme éditions. Paris : PUF.